النشـــــــرة

تصــدرها مطــرانية الــروم الأرثوذكــس في بــيروت

العدد ٨ / ٢٠٠٠

الأحد ٢٠ شباط

أحد الفرّيسي والعشار

تذكار القديس لاون

أسقف قطاني

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الخامس

الــرســالــة (٢ تيموثاوس ٣: ١٠-١٥)

الإنــجــيــل (لوقا ١٨ : ١٠- ١٤)

+ أحد الفريسي والعشار

«أما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة وتعفف» (غلاطية ٥: ٢٢-٢٣).

لقد تحدثنا سابقاً عن الوزنات أو المواهب التي ينالها الإنسان عند معموديته، وانه يجب تثميرها لكي يدخل الملكوت. من بين هذه المواهب أو ثمار الروح القدس، موهبة الوداعة. لذا على الإنسان أن ينمي ثمرة الوداعة لكي يرث الأرض «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» (متى ٥:٥) والملكوت، لأن «كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع» (لوقا ١٨:١٤).

نحن الآن على أبواب الصوم الكبير الذي فيه نتدرب روحياً على الفضائل لكي نحياها باقي أيام السنة. تتكثف في الصوم الدعوة إلى الوداعة، أي التواضع: «أيها الرب وسيد حياتي **أعتقني** من روح البطالة والفضول **وهب الرئاسة** والكلام البطّال، **وأنعم علي** بروح العفة **واتضاع الفكر** والصبر والمحبة...» (صلاة القديس أفرام السرياني)، ونصل في الأسبوع العظيم إلى المثال الحي والأسمى في التواضع، ألا وهو الرب يسوع معلقاً على الصليب لكي يخلص جنس البشر.

نظراً لأهمية التواضع، رتب آباء الكنيسة أن يُقرأ المقطع الإنجيلي المختص بالفريسي والعشار (لوقا ١٨: ١٠-١٤) في بداية فترة التهيئة للصوم. التواضع هو أصل الفضائل الروحية الأخرى: أصل التوبة والتقشف وانسحاق القلب والهدوء. يقول القديس إسحق السرياني: «ليس كل هادئ متواضع، لكن كل متضع هادئ». بداية طريق التواضع أن يسعى الإنسان لأن يعرف ذاته، أن يكون صادقاً مع نفسه ومع ذاته. أن يقر بأن ليس أحداً كامل، وكلنا نخطئ. أن يعي الإنسان ضعفاته. وهكذا متى تواضع الإنسان وأقر بخطأه يكون قد بدأ السير على طريق التوبة.

في مثل الفريسي والعشار يظهر لنا الرب يسوع ، في خمسة آيات فقط، بشاعة التكبر وجمال التواضع. الإنسان بكلمة يدخل الملكوت وبكلمة يطرد منه.

صعد إنسانان إلى الهيكل ليصليا، كما نفعل نحن دائماً عندما نريد التحدث إلى الله. أحدهما فريسي أي من النخبة المتدينة والتي تدّعي التمسك بالوصايا، والآخر عشار، أي جابي الضرائب، وهو بنظر الناس من الدرجة الدنية ويعتبر من الخطأة. ابتدأ الفريسي بالصلاة «مبرراً نفسه، أي وكأنه يقدم جردة حساب عن فضائله: الصدقة والصلاة والصوم والتي يعتبر بموجبها الإنسان صدّيقاً أو باراً (متى ٦). وقف في الهيكل لا ليصلي كما كان يدّعي بل ليبرهن لله انه صدّيق: «أصوم مرتين في الأسبوع وأعشِّر كل ما أقتنيه» (لوقا ١٢:١٨)، وكأن الله بحاجة إلى صومه وتعشيره وصلاته. كأننه يمنن الله ويقول «أنظر كم أنا إنسان جيد». والأسوأ أنه ابتدأ صلاته أولاً «أشكرك أني لست مثل باقي الناس... ولا مثل هذا العشار».

مشكلة المتكبر أنه يظن أن كل الناس على خطأ وهو وحده على صواب، إنه أفضل الناس وأحسنهم. يكتفي بذاته ولا يرَ أحداً غير نفسه. المتكبر هو من يقارن نفسه بغيره وينصب نفسه أفضل منهم. يعتد بنفسه فيعمى قلبه ولا يعود

يرى أخطاءه. الكبرياء هو الخطيئة الأولى منذ البدء. لقد سقط الملائكة لأنهم تكبروا على الله وأرادوا الاكتفاء بذاتهم ونصَّبوا أنفسهم أفضل من الله. سقطوا وصاروا أبالسة. الإنسان الأول أيضاً سقط عندما أقنعه الشرير بأن «الله عالم أنه يوم تأكلان منه (أي من ثمر الشجرة) تنفتح أعينكما **وتكونان كالله عارفين** الخير والشر» (تكوين ٣:٥). أقنعهما بأنهما يصيران آلهة، كالله. تكبر الإنسان وسقط وكان سقوطه عظيماً. يقول الإنجيلي لوقا «الإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج التشر. فإنه من فضلة القلب يتكلم فمه» (لوقا ٦:٤٥). الإنسان المتكبر من فتضلة قلبه المتكبر يتكلم لسانه. هكذا فعل الفريسي: صلّى من فضلة قلبه المتكبر فلم يتبرر أمام الله.

العشار في المقابل «وقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء. بل قرع على صدره قائلاً اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لوقا ١٨:١٣)، فذهب إلى منزله مبرراً. وعى أنه إنسان خاطئ ولم يقل أنه أفضل من غيره رغم أنه لديه المال الكثير ليتكبر على الآخرين ويشتريهم بماله. لقد اختار الطريق الأصعب، ولكنها الطريق الصحيحة للوصول إلى الملكوت «القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله» (مزمور ٥٠:١٧). نشدد هنا أن التواضع ليس أن ندّعي أننا خطأة ونحن لا نشعر بالخطأ في أعماقنا. إن حضرت ذاتك لكي يكرمك الناس فالرب يفضحك (القديس إسحق السرياني).

يعلّمنا الرب يسوع: «احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحةً لنفوسكم» (متى ١١:٢٩). التعليم يتطلب وداعة، لأنه يفترض أنك تريد التعلم من الغير لأن معرفتك ناقصة. لهذا يقول الآباء أن الوداعة مفتاح باب المعرفة، فالله «يدرِّب الودعاء في الحق ويعلِّم الودعاء طرقه» (مزمور ٢٥:٩). الله الإبن لم يُعلم بالكلام، بل بالأعمال والحق ف«أخلى نفسه (تواضع) آخذاً صورة عبدٍ صائراً في شبه الناس... وأطاع حتى الموت موت الصليب، **لذلك رفعه الله** أيضاً وأعطاه إسماً فوق كل إسم **لكي تجثو** باسم يسوع كل ركبةٍ» (فيليبي ٢: ٧-٩). كذلك سيرفعنا نحن أيضاً إذا عشنا تواضعه وأطعنا حتى الموت.

عندما طلب فيليبس من الرب «يا سيد أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع... الذي رآني فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤: ٨و٩). هكذا أيضاً المتواضع: ترى الله من خلاله، لأنه محب. أنت ترى، من خلال تواضعه، الله الذي نزل واتضع

وصار إنساناً مثلنا. المتواضع يقبل كل إنسان مخلوق على صورة الله ولا يحاول أن يطبعه بصورته هو، بل يحاول إبراز صورة الله في الآخر.

التواضع حياة ومسيرة مع الله لا تنتهي. تتطلب صلاة كثيرة وانسحاق قلب. لن تستطيع تحمل إهانات الناس وسخريتهم إلا إذا وعيت أن هناك هدف أسمى تسعى للوصول إليه: الملكوت. من أصعب الأمور أن يقول إنسان لآخر «أعتذر لقد أخطأت إليك». واحدة تنقصنا فقط: «من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع».

+ من أقوال الآباء في انسحاق الروح

+ إذا كان الإنسان حراً وذا نسب شريف في نظر العالم، وقد استحوز على وفرة الغنى، وصار ذا دخل كثير، سرعان ما يفقد شعوره ويعتز بنفسه وتبتدئ يداه تمتدان بالصفع والضرب ورجلاه تسارعان إلى الرفس واللكز، فيصبح غير محتمل. وهذا هو سلوك عديمي الفطنة والتمييز. وليس ذلك فقط، بل والذين تقدموا قليلاً في معرفة الصلاة وقوتها إذا لم يتمسكوا بالإتضاع ينتفخون ويسقطون. فالحية عينها التي أسقطت آدم بعلة الكبرياء قائلة له: «إنك ستصير كاملاً كالله»، لا زالت توحي بالكبرياء في قلوب بني البشر وتهمس في قلب الجاهل: «لقد صرت كاملاً، ها قد ملكت زمام المعرفة وصرت غنياً وليست لك حاجة لأحد. طوباك»،... وهكذا.

+ ليت كل الذين يتقدمون لخدمة الله بالصلاة يتعلمون أولاً أن يكونوا مثله ودعاء متضعين بالقلب حقاً.

+ لا تقل إني خاطئ وليست لي شجاعة أن أقف لأصلي، لأنها شجاعة محبوبة أن تقول ليست لي شجاعة أمام الله! والعكس أيضاً، فالذي يظن أن له شجاعة للوقوف أمام الله بسبب أعماله أو طهارته فإنه يُحرم من قوتها كالفريسي، لأن كل من يعتبر نفسه مرذولاً وفاقد الجرأة أمام الله فهذا يستمع إليه، كالعشار.

+ الندامة هي نفس أسيفة وتضرع حزين مستمر في صلاة نقدمها لله من أجل الصفح عن الخطايا السالفة، وتوسلات لحفظنا من العثرات المستقبلة.

+ حينما تقع بوجهك على الأرض ساجداً في الصلاة، ضع في نفسك أنك مثل نملة وكإحدى الزواحف التي تزحف على الأرض ومثل خنفساء، لا منظر ولا شكل لك. لا تحدث القدير من معرفتك بل بعقل طفل تقدم إليه وسر أمامه لتستحق عناية الأبوة.

+ الرجل المتواضع لا يُسر بمرأى الجموع المحتشدة ولا بالصخب والضوضاء ولا بالغنى والتزين والتنعم، بل في كل حال تجد الفقر والعوز والقلة والحاجة محبوبة لديه.

+ الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعة على شاطئ بحر الغضب، التي عليها تتكسر أمواج ذلك البحر الهائج وهي ثابتة كاطود لا تتحرك.
الوداعة مفتاح باب المعرفة لأن الله «يعلِّم الودعاء طرقه».
في قلوب الودعاء يجلس الله ليحكم، والنفس المنزعجة هي مجلس لإبليس وجنوده.

+ القديس أفستاسيوس المعترف

تعيِّد الكنيسة المقدسة في الحادي والعشرين من شباط لتذكار القديس أفستاسيوس المعترف الانطاكي الذي جاهد خلال حياته للحفاظ على الإيمان القويم بين أبناء الكنيسة وعانى من الهراطقة فاستحق لقب المعترف.

ولد أفستاسيوس في أواخر القرن الثالث في مدينة سيدا في إقليم بمفيليا في تركيا اليوم، وتربّى على الإيمان القويم والتمسك بالرب يسوع. ذاع صيت فضائله السامية وقداسة سيرته وعلومه العميقة حتى إن أهل مدينة حلب طالبوا به أسقفاً عليهم، فكان خير راعٍ لهم. عندما توفي أسقف انطاكية عام ٣٢٤، طالب به الانطاكيون لكي يرعاهم. رفض أفستاسيوس الذهاب إلى انطاكية، ولكن لمّا لم تنفع مقاومته انتقل إلى هذه المدينة وعمل بكد في رعاية الخراف الناطقة هناك.

في هذه الأثناء استفحلت الهرطقة الآريوسية في بلاد الشرق مما استدعى انعقاد المجمع المسكوني الأول في العام ٣٢٥ في مدينة نيقية. شارك أفستاسيوس في أعمال المجمع وكان من أبرز وجوهه، حتى ان آباء المجمع طلبوا منه إلقاء الكلمة الافتتاحية والترحيب بالملك قسطنطين. بعد الانتهاء من المجمع الذي ثبّت

عقيدة ألوهة الابن، عاد أفستاسيوس إلى انطاكية مصمماً على تنقية اكليروسه وإقصاء الآريوسيين منهم.

وعظ أبناء رعيته وحصّنهم ضد ضلالات الهراطقة ونجح في مهمته فحاول بعض الأساقفة الآريوسيين تدبير المؤامرات ضده. استغل الظرف أفسافيوس، أسقف نيقوميذية الآريوسي، وأتى إلى انطاكية عام ٣٢٧ بصحبة عدد كبير من الأساقفة الآريوسيين، وطلب عقد مجمع مكاني في المدينة. اضطر أفستاسيوس إلى القبول مرغماً بهذا الاجتماع ولم يكن عالماً بالمؤامرة التي كانت تحاك ضده. وجّه الآريوسيون المجمع في سيناريو معد سلفاً، فساقوا ضد أفستاسيوس اتهامات باطلة إذ اتهموه بالتكلّم بالسوء على الملكة هيلانة وبارتكاب الزنى. ولكي يحكّموا المؤامرة أحضروا إلى المجمع امرأة أغروها بالمال فأقسمت انها ارتكبت الزنى مع أفستاسيوس وولدت الطفل الذي كانت تحمله. أقال المجمع أفستاسيوس وأُرسل القرار إلى الملك قسطنطين الذي كان صديقاً للآريوسيين، فأمر بإحضار القديس إلى القسطنطينية. احتجّ الأساقفة الأرثوذكسيون وأبناء إنطاكية على قرارت المجمع لعلمهم بقداسة أسقفهم، حتى أن بعضهم حاول قتل الأساقفة الآريوسيين لولا تدخل العسكر الامبراطوري. خضع أفستاسيوس للقرار، ولكنه قبل الانطلاق جمع أبناء رعيته وألقى فيهم خطبة حثّهم فيها على الثبات في الإيمان القويم وعدم الخوف من الهراطقة وعدم طاعتهم.

مثل القديس أمام الامبراطور، ولكن كل شيء كان قد أُعدّ سلفاً، فأمر الملك بنفيه إلى تريانوبوليس في تراقيا ثم إلى فيليبي في مكدونيا. بقي أفستاسيوس في المنفى إلى أن رقد بالرب في العام ٣٣٧.

لقد كان هذا القديس نموذجاً في الدفاع عن الإيمان والتمسك به رغم كل المصاعب. فبشفعاته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.

+ التكبّر والتواضع

مثل الفرّيسي والعشّار هو بمثابة تدريب سابق وتهيئة للذين يريدون اقتناء التواضع المقدّس الذي هو أساس كل الفضائل، هذه الفضائل التي بها يتوطد بناء بيت ملكوت السموات، وللذين يريدون أن يهربوا من التكبّر الممقوت من الله، هذا التكبّر الذي يبعد الانسان عن كل الفضائل المسيحيّة. مَنْ الذي لا يحسد عودة العشّار وتوبته ولا يبغض أيضاً كبرياء الفرّيسي،

خصوصاً وأن التواضع مرتبط بالمسيح بينما التكبّر مرتبط بالشيطان المتباهي والكلّي الكبرياء.

٠٠٠" من يصعد الى جبل الرب؟ الطاهر اليدين والنقيّ القلب الذي لم يحمل نفسه الى الباطل " (مز ٢٣). هكذا كانت جهالة صور تكبّرها، فهي التي طردت ندى النعمة فأصبحت أرضاً يابسة. وتعلمون هذا جيداً ممّا سمعتم من أقوال ومن خبرتكم الخاصة : المتكبّر لا يشعر بحاجة الى نعمة الله التي تكمّل (كلّ ضعف). ولذلك هو قاسٍ وجاف. تنقصه الحرارة المحيية والرطوبة المنعشة. فيه يصنع الشيطان عشّه كما في شجرة يابسة.

بكلمة واحدة التواضع هو غذاء الفضائل وغذاء الجمال المسيحي. هو أساس التقوى ومبدأها وهدفها. هو نقض الأهواء وصيانة الندى في جذور الإيمان. التواضع يتلازم مع مخافة

الله التي تطرد الإثم كما قال إرميا وسليمان، لأن " بدء الحكمة مخافة الرب". يجعل التواضع من العشّار كارزاً بالروح بينما يجعل التكبّر من الفرّيسي صنجاً فارغاً يرنّ باطلاً. حقاً إن المرائي هو مثل رمّانة صدوم، هو بطيخ جميل من الخارج إلا أنه عفنٌ وبغير طعم في الداخل.

صعد العشّار الى الهيكل، صعد بالجسد وبالنفس. كما صعد الفرّيسي أيضاً الى الهيكل بالجسد والنفس. الأوّل صعد ونفسه نازلة مع تواضعه، والآخر نزل الأن نفسه كانت متعالية مع تكبّره. الأوّل كان يصعد على درجات داود ويتبع الطريق الذي يقود الى الفردوس، والآخر كان يسير نازلاً في طريق الذي يؤدّي الى لوسيفورس رئيس الكبرياء.

كثيرون يدخلون الهيكل ولكن قليلين هم الذين يشتركون فيه لأنهم غير مستحقين لبيت الله. المتكبّر لا يبقى في جوّ المحبّة، وكل من لا يبقى في جوّ المحبة لا يبقى في حضن الله كما يقول يوحنا الإنجيلي. أمّا كل من يبقى في المحبة فيسكن في الله والله فيه، ويكون هيكلاً لله كما يقول بولس الرسول. الذين يدخلون في هيكل الله هو الذين يعمل الله فيهم. وينير الله فقط الأطفال والصغار كما يقول داود و"حيث يكون المتواضع هناك توجد الحكمة" كما يقول سليمان، والحكمة إيمان وعمل.

كانت الحكمة ناقصة عند الفرّيسي. لذلك وهو مرائي يشكر الله ظاهرياً فقط، أمّا في الداخل فهو ناكرُ لنعمته. لا يحفظ الوصية: " أحبب قريبك كنفسك". كلمته " أشكرك " تبدو حسنة كونه لم ينسب الفضيلة الى نفسه، كما كان يعتقد نبوخذنصّر وسيماس وبطرس. إن لوسيفورس وآدم وقعا في مثل هذا التكبّر.كان الفرّيسي يفتهر بما ليس عنده فعلاً، لأنه وإن يملك شيئاً فهو خاسره بسبب كبريائه.

ينبغي للذي يملك شيئاً أن يعترف بأن ليس لديه أيّ شيء. وينبغي له أن يقول: " أنـــا عبد بطّال " لأنه "لن يتبرّر أمامك أي حيّ".

من لا يتواضع يدوس المحبة، ومن لا يحبّ يزدري. حقاً إن الكبرياء مصـــدر كـل خطيئة. بأتي بعده الحسد، وبعد الحسد القتل، وبسبب الكبرياء : رأى أبشلوم أباه عدوّاً وسـعى الى قتله. العدوّ الخفي أخطر من العدوّ الظاهر، ولا يختلف عن الشيطان الذي، بشكل حيّـــة، ضحك من المجبول أولاً. لذلك فان الخاطىء المعلَن يُبرَّر، أما الخاطىء المتخفّي فيّدان. الأول يُلام لفعله السيء، أما الآخر فلا يزال يملك الكذب والباطل، ولذلك أُبعِد عن التبرير الإلـــهي. المختارُ يُحدَّدُ من خلال محبّته كما يقول بطرس الرسول في رسالته الأولى وكما يقول بولـس الرسول في رسالته الى أهل أفسس ورسالته الى أهل كولسي. أما الحقد فهو مشجوب بالكليّة.

أدرك العشّار خطيئته فغُفِرتْ له وتحرَّر منها، لذلك يحيا كما يقول النبي حزقيال. هـو الحياة التي ربحها داود كما كان يقول ناتان، أم الفرّيسي فلم يدركْ خطيئته ولذلك بقي بعيـــداً عن الحياة.

لننتيه جيداًمرةً أخرى لما ورد في الإنجيل: " إنسانان صعدا الى الهيكل ليصلّيا، الواحد فرّيسي والآخر عشّار " (لو ١٨:١٠). الفرّيسي نموذج للأشخاص الذيـــن يـبرِّرون انفســهم ويحتقرون الخاطئين، نموذج للمتكبّرين، هكذا أراده الرب. واستعان الرّب بالعشّار لكي يعطي نمودجاً للخاطئين التائبين، الذي يصلّون ويعترفون بقلب منسحق بالكليّة، وذلـــك لكـــي يعلّـم الجميع أن يكرهوا الكبرياء ويحبّوا التواضع.

ويبيّن المسيح جلياً في هذا المثل أن البِرّ (أو العدل) فضيلة كبيرةُ تقرّب الإنسان مـــن الله. ولكن عندما يرافقه الكبرياء يقودُ الإنسان الى القعر، هكذا ما حصل مع الفرّيسي ولذلـــك أُدين وسقط في الهلاك. الظلم والخطيئة منبوذان ومزدرى بهما ويبعدان الإنسان عن الله أكـثر من أي شرَ، أما التواضع فهو يبرّر الإنسان بالتوبة والاعتراف ويجعلـــه مســتحقاً للخـــلاص ويقرّبه من الله ، هذا ما حصل عليه العشّار. لذلك يُرَّر وأصبح جديراً بالخلاص.

القديس اندراوس الكريتي